الواقـع الاجتمـاعـي في البلدان النامـية مقـاربة أنثروبولوجية لظاهـرة عالمية العائلة عبر الثقافات الإنسانية

الدكتور : مختار رحاب

جامعة المسيلة، الجزائر

الملخص:

لقد أثبتت العديد من الأبحاث الأنثروبولوجية الحقلية أن مؤسسة الأسرة تمثل تنظيما اجتماعيا وثقافيا لدى الثقافات البشرية، وعبر تاريخ الحضارات المختلفة، وهى متشابهة إلى حد بعيد في الكثير من العناصر المكونة لها إضافة إلى الوظائف التى تؤديها، فقد أصبحت تمثل شكلا مشتركا بين الحضارات والثقافات المتباينة والمختلفة، وفي ظل اختلاف الثقافات البشرية نجد وظائف وأدوار الأسرة أو العائلة تصنع شيئا يكاد يكون متشابها أو متطابقا، وفي هذا المقال سنعمل على تقديم بعض التفسيرات حول نشأة الأسرة عبر الثقافات البشرية، وأسباب التشابه الشكلية والوظيفية القائمة بينها.

Résumé:

Beaucoup de recherches anthropologique ont prouvé que l'institution de la famille représente un organisme sociale et culturelle pour toutes les cultures humaines, et à travers l'histoire et les différentes civilisations, qui est très similaire à un grand nombre de ses éléments constitutifs, en plus des fonctions exercées en devenant une joint-venture de forme entre les déférents civilisations et cultures humaines, car nous trouvons les fonctions et les rôles de la famille ont quelque chose de similaire ou presque identique. dans cet article nous allons donner quelques explications sur les origines de la famille humaine à travers les cultures, et les facteurs qui provoque des similitudes morphologiques et fonctionnelles.

مقدّمة:

لقد ظل السؤالان كيف نشأت العائلة؟ وهل ما يسمى ب" الأسرة" موجود لدى كل المجتمعات مطروحين بإلحاح، وشغلا حيزا معتبرا من اهتمام علماء الأنتروبولوجيا والاجتماع.

وكانت قد أجريت العديد من الأبحاث النظرية معتمدة على ما توفر من معلومات تاريخية، كما تم القيام بالعديد من المتابعات الإمبريقية في العديد من المجتمعات، لا سيما في المجتمعات المسماة" غرائبية" أملا في الوصول إلى الشكل الأول الذي اتخذته الأسرة لدى الإنسان، ومحاولة الكشف عن النظم ومدى تباينها بين المجتمعات الإنسانية، وحتى ما تم جمعه من بيانات إمبريقية من قبل الباحثين كان مفتوحا أمام تفسيرات متعددة و مختلفة.

وفي هذا المقال سنعمل على تقديم مفهوم للأسرة، وما تفسير أصل نشأتها، وما هي أبرز البناءات التي تتخذها لدى المجتمعات البشرية محاولين الإجابة عن الأسرة هل هي خصوصية أم كونية؟ وما السبب في ذلك؟.

أولا: التعريفات والمفاهيم:

تعريف الثقافة:

يرى هرسكوفيتز في كتابه "مبادئ الأنثروبولوجيا الثقافية" أن الثقافة ظاهرة جامعة من حيث أنها مكتسب من المكتسبات البشرية، لكنها ظاهرة فريدة من حيث كل من تعبيراتها المخصوصة، وأنها ثابتة وديناميةفي الوقت نفسه، إذ أنها تحتفظ بتعديلات دائمة، وأنها تحدد سلوكاتنا، لكنها تحددها أحيانا كثيرة بصورة لا واعية، وأما كونها ظاهرة جامعة فلأنها تتجلى عبر مختلف مجالات الحياة المجتمعية، من أساليب تحصيل المعاش، النظم الانتاجية، والتقنيات، والمؤسسات، والتنظيم العائلي والسياسي، وخاصة عبر المعتقدات وفلسفة الحياة والتعبير الفني.[1]

ويرى العديد من الباحثين أن أية دراسة مقارنة للثقافات تقوم على فكرة أساسية قوامها أنه مهما كانت هناك من جوانب للاختلاف بين الثقافات

الإنسانية، إلا أن ثمة مظاهر عامة مشتركة تميزها جميعا وتجعلها قابلة للتحليل العلمي. ولذلك ارتأينا في هذه المقالة أن نتتبع الأسرة عبر الثقافات الإنسانية من ناحية وجودها وأبرز التطورات والتحولات التي عرفتها، وهذا بلا شك قد يساهم في إيجاد رؤية واضحة ومن خلالها خطط علمية هادفة لإلقاء الضوء على جملة المشكلات التي تعاني منها الأسرة المعاصرة.

العـــائلة:

إن لفظ عائلة في اللغة العربية مشتقة لغويا من فعل " عال، يعول، والعائل هو من كد وتعب ليقوم بتأمين ضرورات الحياة لمجموعة من أفراد، تربطه بهم رابطة الدم، منحدرين من صلب رجل واحد وهو العائل، والأشخاص المعولين هم زوجته وأولاده ذكورا وإناثا وهم حصيلة زواج شرعي.(2)

لقد ورد في قاموس" Dictionnaire de l ethnologie et de l anthropologie" أن الكثيرين يعتقدون فقه ماهية العائلة، فهي تبدو وكأنها جزء من نظام الطبيعة، الأمر الذي يكسبها طابعا كونيا، بالتركيز على شكلها الأساسي، الذي يتخذ اتحادا معترفا به اجتماعيا بين رجل وامرأة يعيشان رفقة أبنائهما، وهذا الشكل حسب العديد من الأبحاث والدراسات موجود عند الشعوب الأكثر تطورا كما عند الأكثر بدائية. كنموذج قبائل الفيدا في سيلان، الذين يعيشون عراة في مخابئ كهفية، حيث تقيم كل عائلة بسيطة في الجزء المخصص لها من المخبأ دون الاختلاط مع العائلات الأخرى... ان القاعدة تستوجب أن تتعايش عدة خلايا زوجية متقاربة، موزعة على أجيال، يعود نسبها جميعا إلى جد مشترك تحت سقف واحد.(3)

وعلى الرغم من كون المؤسسة العائلية حيوية وضرورية وشاملة ظاهريا، غير أنه بالمقابل لا يوجد لها تعريف جامع مانع، ومن بين أشهر التعاريف حول العائلة نجد تعريف قاموس" littré" الشهير من بين التعريفات الستة الواردة فيه، وفحوى هذا التعريف القائم على المقابلة بين العائلة والمنزل، فالعائلة هي مجموعة

أشخاص ذوي دم واحد يعيشون جنبا إلى جنب، والمنزل يمثل التتابع والانتقال مع الوقت، ويرى هذا القاموس الفرنسي أن الإقامة المشتركة والدم الواحد هما المعياران الأساسيان اللذان يعرفان العائلة.(4)

وجاء في الموسوعة البريطانية Encyclopédie Britannique أن العائلة تتميز بالمقر المشترك والتعاون الاقتصادي والتزاوج والتناسل بين راشدين من ذكر وأنثى، تقوم بينهما علاقات جنسية مقبولة اجتماعيا، وتقوم العائلة بتلبية حاجات أساسية: كالحياة الجنسية، التوالد، الضرورة المعيشية، الهوية الشخصية والجماعية، وتربية وتعليم الأولاد.(5)

والعائلة حسب رأي بعض الباحثين تتفق مع أصغر خلية من خلايا الجماعة، تلك التي يسميها الأنكلوسكسونيون في كثير من الأحيان " البطن النواتي" وهي تتصف بالإقامة المشتركة، وبالتعاون الاقتصادي، وتضم أشخاصا بالغين من الجنسين، من بينهم اثنان على الأقل يرتبطان بعلاقات زوجية.(6)

وحسب تقدير العديد من الباحثين أنه مع تشكل الجهاز الرمزي والكلامي لدى الإنسان، كانت مختلف نقاط بروز الجماعات البشرية قد اشتركت في صناعة حلول متشابهة تركيبيا، ولعل السبب في ذلك هو اتباعها لقوانين الإمكانيات المحددة، ومنها تنظيم العلاقات الجنسية، الاعتراف بمبدأ بنوة يصنف أشخاص المجموعة بين من يستطيعون الزواج ومن لا يستطيعون، كذلك ضبط مبادئ ارتباط مبنية على تحريم سفاح القربى، وفي الأخير يتدخل التقسيم الجنسي للأعمال لتثبيت الروابط بين الأشخاص ولجعل كل من طرفي ثنائي يرتبط بالآخر بسبب عدم كفاية القدرات الخاصة لكل منهما، وما يمكن أن نخلص إليه هو أن الارتباط بين مجموعات قرابة محكومة بقاعدة البنوة هو الأساس الأدنى لمجتمع ثابت، والزواج هو أداة هذا العقد، وتستوجب العائلة تعاون مجموعات مختلفة القرابة لكي تعيد تشكلها جيلا بعد جيل.(7)

العائلة مؤسسة أساسية تشمل رجلا أو عددا من الرجال يعيشون زواجا مع امرأة أو عدد من النساء، ومعهم الخلف الأحياء، وأقارب آخرين وكذلك الخدم.[8]

أما **البناء العائلي** فمن أبرز تعريفاته نجد" شبكة المتطلبات الوظيفية التي تنظم العلاقات والتفاعلات بين أعضاء الأسرة."[9]

ثانيا:الأشكال المورفولوجية للمجتمعات البشرية في فترة ما قبل التاريخ،والحقب التاريخية المبكرة:

لقد استحوذت المجتمعات البدائية على اهتمام الباحثين، وشغلت حيزا معتبرا من اهتماماتهم لا سيما فلاسفة القرن الثامن عشر، والباحثين الأنتروبولوجيين في القرن التاسع عشر الذين لم يكتفوا بما نقله الرحالة والمستكشفون من معلومات ومعطيات حول هذه المجتمعات التي وصفوها بالبدائية والغرائبية، ومن المنظور الأنتروبولوجي فمصطلح "مجتمع بدائي" المقصود منها تلك المجتمعات التي تتميز بمساحة صغيرة أو رقعة جغرافية محدودة، وعدد سكانها غالبا ما يكون صغير الحجم، وضيق نطاق العلاقات الاجتماعية، وقلة التخصص في الوظيفة الاجتماعية إذا ما قارناها بمجتمعاتنا المعاصرة، وانعدام الكتابة لدى هذه المجتمعات مما يعني غياب أي تراث أو فن أو علم لدى الإنسان البدائي ،هذا بالإضافة إلى بساطة أدوات الإنتاج والاقتصاد.

ولعل سائلا يسأل إن كانت هذه خصائص المجتمعات البدائية فما الجدوى من دراستها، وتحمل المشقة والتكاليف والمخاطر في الوصول إليها، والإقامة بين سكانها ومعايشتهم وملاحظة حركاتهم وأعمالهم والعلاقات فيما بينهم، وقد يتطلب الأمر حتى مشاركتهم في بعض الأنشطة والطقوس التي يقومون بها وما يصاحبها أحيانا من المخاطرة بالنفس؟.

إن الاهتمام بعلم الأنتروبولوجيا والاتجاه صوب المجتمعات البدائية في القرون الماضية، بدافع الاكتشاف وحب الاطلاع وركوب المغامرة، والسعي لإيجاد

تفسيرات للعديد من الظواهر التي تعيشها المجتمعات الحديثة لا سيما المجتمعات الأوربية الصناعية، قد كانت العوامل الأكبر جذبا للاهتمام بدراسة المجتمعات البدائية ذلك أنها تمثل الحالة الطبيعية الأولى للحياة البشرية، هذا بالإضافة إلى الدلائل والشواهد والمؤشرات التي عثر عليها الباحثون والدارسون لهذه المجتمعات والتي ساعدتهم في بحثهم عن أصول النظم الاجتماعية وذلك بتتبعها من شكلها البسيط إلى ما أصبحت عليه من أشكال أكثر تعقيدا في مجتمعاتنا المعاصرة، هذا بالإضافة إلى الفوائد المعتبرة التي حققوها من خلال اعتماد المنهج المقارن والأبحاث المقارنة.

إن ما نقصده بالشكل المورفولوجي هو نمط الوحدات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع والتي ينتمي إليها المجتمع ذاته، وبالضرورة الحياتية يستوجب على الإنسان في كل بقاع الأرض أن يحقق الانتماء إلى وحدتين اجتماعيتين هما" الأسرة والمجتمع المحلي. والأسرة هي الشكل الاجتماعي الأول الذي يعرفه الطفل، أما المجتمع المحلي هو الشكل الثاني الذي يتعرف الطفل إليه، وهو أكبر جماعة من الأشخاص يعيشون معا ويقوم التعامل ضمنه على الاتصال الشخصي المباشر.

إن الأسرة الزواجية والمجتمع المحلي هما الوحدتان الاجتماعيتان الوحيدتان ذواتي الانتشار العالمي، ولذلك فان المجتمعات البدائية يوجد بها الأسرة الزواجية وأشكال أخرى للأسرة، ويوجد بها أيضا المجتمع المحلي وتعتبر العشيرة أكثر صوره انتشارا وأهمية في المجتمعات البدائية وتوجد صورة أبسط تسمى المعشر، والشكل المورفولوجي العام السائد في المجتمعات البدائية هو" القبيلة" التي تتكون من عدة عشائر أو معاشر أي من عدة مجتمعات محلية، والقبيلة أكبر الأشكال المورفولوجية للمجتمعات البدائية.[10]

ثالثا:أبحاث انتروبولوجية حقلية حول الشكل المورفولوجي للأسرة في المجتمعات البدائية:

وفيما يلي بعض الدراسات الأنتروبولوجية الحقلية التي أجريت في المجتمعات البدائية، و اخترت نموذجين الأول حول سكان جزر الأندمان الواقعة

على طول الجزء الشرقي من خليج البنغال، والنموذج الثاني حول سكان الاسكيمو، وتماشيا مع إشكالية المقال فسأركز على الشكل المرفولوجي الأول المتمثل في الأسرة الزواجية.

1. **الأسرة عند سكان جزر الأندمان:**

تقع جزر الأندمان على طول الجزء الشرقي من خليج البنغال على خط طول جزر" نيكوبار" حيث تشكل معها إحدى ولايات الهند، وتبلغ المساحة الإجمالية لجزر الأندمان حوالي 2500 ميل مربع، وتعتبر جزيرة الأندمان الكبرى أكبر جزر المجموعة اذ يبلغ طولها حوالي 160 ميلا أما عرضها فلا يتعدى 20 ميلا في أي مكان منها، والجزيرة الكبيرة الثانية ضمن هذه الجزر جزيرة الأندمان الصغرى التي يبلغ طولها حوالي 26 ميلا وعرضها 16 ميلا أما بقية المجموعات فما هي إلا جزيرات صغيرة متباعدة. (11)

وكان الأندمان يعيشون عزلة تامة عن بقية البشرية، فحتى عند اكتشافهم من قبل الأوربيين لم يكونوا يدركون أن هناك شعوبا غيرهم تعيش في الأرض، كما أن لغتهم مستقلة ومنفصلة ليس لها اتصال واضح مع العائلات اللغوية المشهورة، كما اعتقد سكان الأندمان أن الغرباء ذوي البشرة الفاتحة اللون والشعر الأشقر والقامة الطويلة ما هم إلا أرواح (12) .

وتشكل الأسرة لدى الأندمان أبسط الوحدات الاجتماعية، ذلك أن القبيلة لديهم تتشكل من مجموع جماعات متحدة، وتنقسم كل جماعة محلية إلى عدد من الأسر، وتجمع الأسرة الزوج بزوجته وأطفاله وأبنائه غير المتزوجين، ويقوم تقسيم العمل على أساس تحديد وظائف كل من الرجل والمرأة في حياتهم الأسرية، حيث يقوم الرجال بالصيد والقنص وصناعة الحراب والسهام وبقطع الأخشاب لصنع القوارب، بينما النساء يقمن بجمع الأخشاب والحطب لاستخدامها كوقود للنار التي يوقدونها بلا انقطاع، إضافة إلى جمع الحبوب

والفواكه مع أطفالهن، كما يقمن بصناعة السلال وصيد بعض أنواع السمك الصغير بشبكة خاصة يصنعها الرجل [13].

وعندما يريد الشاب أن يتزوج فان كبار السن دائما هم الذين توكل إليهم عملية تنظيم الزواج، حيث يمنعون زواج الأقارب مثلا، وعملية إرضاع الطفل عندهم يمتاز بفترة طويلة نوعا ما، حيث لا يفطم الطفل حتى سن الثالثة أو الرابعة، وعند حدوث الفطام يصبح الطفل ابنا للقرية ككل، كما يمتاز سكان الأندمان بالإدراك التام للفروق الدقيقة بين درجات القرابة وبالألفاظ المستخدمة عند المخاطبة، وتعكس مصطلحاتهم سيولة نظامهم الاجتماعي المحلي، كما يميز أفراد الأسرة بين الأقارب الذين تربطهم بهم صلة النسب البعيد، وبين من يرتبطون معهم بصلة الزواج [14].

2. **الأسرة عند اسكيمو القطب الشمالي :**

يقطن سكان الاسكيمو أبعد نقطة إلى شمال الكرة الأرضية، يقيمون بيوتهم على شاطئ" سميث ساوند" شمال غرب غرينلاند، يمتاز مناخهم بشتاء طويل قاس وصيف قصير عابر، يمتلك سكان الاسكيمو تكنولوجيا بسيطة غير أنها وليدة بيئتهم فهي تساعدهم في تلبية حاجاتهم سيما الضرورية منها، ويتم جمع الطعام عندهم بواسطة الصيد البحري والبري والالتقاط.

وما يلاحظ لدى سكان الاسكيمو أن أعباء العملية الإنتاجية موزعة بالتساوي بين الذكور والإناث، كما أن الملكية مشاعية فكل الأشياء مملوكة ملكية عامة، وهذا ما يؤدي بنا إلى استخلاص مفاده غياب النشاط التجاري لدى الاسكيمو، وبالتالي فلا قيمة للثروة عندهم.

وفيما يخص الجماعات الاجتماعية فينتشر لدى الاسكيمو نوعان أو شكلان اثنان: الأسرة النووية والقرية أو فريق الصيد، والشكل الأول هو الأكثر انتشارا والأكثر ثباتا واستقرارا، أما الآخر فهو محدود وعابر في غالب الأوقات بحكم المواسم.

إن العائلة تتفق مع أصغر خلية من خلايا الجماعة، تلك التي يسميها الانكلو-سكسونيون في كثير من الأحيان" البطن النواتي" وهي تتصف بالإقامة المشتركة، وبالتعاون الاقتصادي، وتضم أشخاصا بالغين من الجنسين، من بينهم اثنان على الأقل يرتبطان بعلاقات زوجية.

رابعا: أبحاث أمبريقية ومقاربات أنتروبولوجية حول أشكال وجود العائلة لدى الإنسان:

- **التطور المورفولوجي والبنائي للعائلة البشرية من منظور الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع**

توجد نظم فكرية عديدة تهتم بالبحث في الطبيعة البشرية ومنجزات الإنسان، وفي العلاقات بين الكائنات الإنسانية، بعضها قديم والآخر حديث، ويمكن النظر إليها على أنها فروع وشعب للدراسة المشروعة للإنسان، إن أقدمها يتمثل في تلك الإسهامات التي تمت في مجالات الفلسفة الأخلاقية، وعلم اللاهوت، وتاريخ الأساطير، ومختلف التفسيرات التي وضعت للقانون القديم والعرف، كما أن بالإمكان تتبع مثل هذه الإسهامات في الثقافات الممتدة إلى العصر الحجري، حيث ازدهرت ازدهارا ملحوظا في الحضارات القديمة للصين والهند وغرب آسيا، ومصر، هذا وتعتبر الجهود الفكرية الأخرى مثل تلك التي بذلت في مجالات: علم الاقتصاد، وفقه القانون، وعلم السياسة، وعلم الجمال، وعلوم اللغة، والأركيولوجيا، والدراسة المقارنة للأديان، بمثابة إسهامات جديدة وإضافات للاتجاه الإنساني [(15)] .

أما الإثنولوجيا فتعنى بدراسة الشعوب و السلالات العرقية دراسة تاريخية مقارنة تتم عبر الزمان، و تبحث في الأصول الأولى للنوع الإنساني العاقل و تطوره حتى العصر الحاضر و لهذا فهي تهتم بالمقارنة و التحليل من خلال نظرة تاريخية، و يدخل في إطار الإثنولوجيا دراسة أصول الحضارات و المناطق الثقافية، و هجرة الثقافة و انتشارها من منطقة إلى أخرى والسمات النوعية لكل من هذه الثقافات.

و بالتالي فمهمة الإثنولوجي البحثية هي دراسة ثقافة المجتمعات التي يقوم بإنجاز أبحاثه و دراساته حولها حيث يقوم بدراسة الدين، و النظم السياسية و النظم الاجتماعية، إضافة إلى العادات و التقاليد و المعارف، و الأفكار و الفنون و المثل العليا و الاختراعات الصناعية.

إن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح دوما، وكان قد شغل حيزا معتبرا من اهتمام العلماء والباحثين في مجال العلوم الاجتماعية عموما والأنتروبولوجيا خصوصا. هو كيف نشأت العائلة في المجتمع البشري؟ وهل لدى كل المجتمعات مؤسسة أو بناء يمكن أن نطلق عليه " العائلة"؟ وإذا وجد هذا الأمر فما الذي تشترك فيه هذه البنى؟.

يختلف السؤال عن كيف ولماذا نشأت العائلة نظريا عن السؤال الخاص ب" التسلسل التطوري النشوئي لها في أشكال العائلة، والذي تم بحثه من قبل علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا الأوائل ومن الأمثلة في هذا الشأن نذكر فريدريك لوبلاي 1882، باخوفن1897 Bachofen، ماكلينان1896 Mclennan، Maine هنري ماين 1885، مورغان1903Morgan.واستمر هذا الاتجاه في أعمال ويسترمارك 1921 وبريفولت 1931 وانجلز 1962.

وقبل نهاية القرن التاسع عشر ولبعض الوقت كان من قبل العقلانية والمعاصرة بالنسبة لعلماء الاجتماع أن يتأملوا الكيفية التي تطورت بها العائلة وصولا إلى شكلها الحالي على نحو ما يبدو في المجتمع الغربي، وقد أخذ نتاج هذه التخمينات عموما، وعلى اختلاف الآراء شكل التسلسل التطوري للمراحل التي مرت بها العائلة وصولا إلى قمة تطورها في المجتمعات المتحضرة. [(16)]

أخذ الرواد الأوائل للأنتروبولوجيا في القرن التاسع عشر في دراستهم للنظم الاجتماعية والثقافية بفكرتي التطور والتقدم تمشيا منهم مع المناخ الفكري السائد في ذلك الوقت، وتأثرا بما أحرزه مبدأ التطور من نجاح في مجال العلوم البيولوجية، ولهذا غلب الطابع التاريخي على دراستهم، وأصبحت مهمتها

الأساسية البحث في تطور الثقافة الإنسانية، وأصول النظم الاجتماعية، وكانت الشواهد الخاصة بالمجتمعات البدائية تستخدم في دعم الفروض والنظريات دون حاجة من الباحثين إلى زيارة لهذه المجتمعات، مكتفين بما يصلهم عنها من كتابات الرحالة والمبشرين والتجار والموظفين الرسميين وغيرهم [17] .

لقد تعددت النظريات المفسرة لأصل وطبيعة وتطور العائلة البشرية، نجد من أبرزها النظرية التطورية والنظرية البنائية التي تعتقد بأهمية الترابط المنطقي بين المؤسسة العائلية والمؤسسات الاجتماعية الأخرى، وكذا الترابط المنطقي بين الأدوار الاجتماعية الأساسية، وركزت النظرية الوظيفية على دراسة أثر وظائف العائلة في حفظها للكيان الاجتماعي وتحقيق استمراره، بالإضافة إلى التركيز على دراسة وظائف الأدوار العائلية، أما النظرية المادية التاريخية فنظرت إلى العائلة على أنها خلية أساسية تتأثر بالظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بالمجتمع وتتحول من شكل إلى شكل آخر اعتمادا على طبيعة تحول المجتمع [18] .

وتماشيا مع طبيعة المقال ومحاولة الإجابة على السؤال الذي انطلقنا منه فسنعتمد التركيز على بعض الدراسات التي قام بها الباحثون الأوائل ونذكر منهم:

1. **فريدريك لوبلاي:** يرى فريدريك ليبلاي أن العائلة في المجتمع البشري تمر بثلاث مراحل تاريخية وحضارية وكل مرحلة تختلف عن المرحلة الأخرى من حيث صفات العائلة المتعلقة بعلاقاتها الاجتماعية، تركيبها، وظائفها، مهنتها، وأيديولوجيتها، والمراحل الثلاث التي تمر بها العائلة البشرية حسب لوبلاي هي [19] .

أ. **مرحلة العائلة المستقرة:** وهي العائلة القديمة، العائلة العشائرية التقليدية التي تربط أعضاءها علاقات اجتماعية متماسكة، وتوجد هذه العائلة عادة في المجتمعات الزراعية الريفية.

ب. **مرحلة العائلة الفرعية أو الانتقالية:** وفي هذه المرحلة تسير العائلة نحو التحول من الشكل التقليدي المستقر إلى عائلة غير مستقرة والزمن

المطلوب لحدوث هذا التحول يختلف من مجتمع لآخر غير أنه في المتوسط العام يتراوح بين 50 إلى 150 سنة، ومن أبرز خصائص العائلة في هذه المرحلة هو الحداثة وصغر الحجم.

ج. **العائلة غير المستقرة:** وهي العائلة التي تمر بالمرحلة الحضارية الثالثة بعد أن تنتقل من مرحلة العائلة الانتقالية أو الفرعية، وسبب تسميتها بالعائلة غير المستقرة يرجع إلى حقيقة اعتقادها باديولوجيات وقيم وممارسات مختلفة فالابن يعتقد بأفكار وآراء وقيم ومقاييس تختلف عن أفكار وأراء وقيم أبيه مع اختلاف في ممارسة المهن وكذا الاختلاف في الظروف الاقتصادية والاجتماعية.

2. **أما الفيلسوف وعالم الاجتماع الفنلندي"وسترماك":** فكان قد قسم العائلة البشرية إلى ثلاثة أصناف:

أ- العائلة البسيطة Simple Family: والتي تتكون من الأب والأم والأطفال فقط، وهذه العائلة تسكن في بيت واحد ولا تدع المجال للأقارب بالسكن في بيتها، وتوجد هذه العائلة في المجتمعات الصناعية والحضرية الراقية.

ب- العائلة المركبة Compound Family وهذه تتكون من العائلة البسيطة إضافة إلى الأقارب كالعم والجد والخال الذين يسكنون في بيت العائلة البسيطة، ومثل هذه العائلة توجد في المجتمعات الصناعية والزراعية على حد سواء.

ت- العائلة المعقدة Complex Family وهذه العائلة تتكون من عائلتين أو ثلاث عائلات بسيطة تعيش في بيت واحد، تربطها علاقات قرابية متماسكة، وتوجد هذه العائلة في المجتمعات القبلية والعشائرية وفي المجتمعات القروية والزراعية وحسب وسترمارك أن هذا التحول في شكل العائلة راجع إلى التصنيع والتنمية الاقتصادية والتحضر خاصة ما شهده المجتمع البشري خلال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

3. **أما البروفسور روبرت مكايفر:** وهو عالم اجتماع أمريكي اشتهر بكتاباته العلمية الدقيقة عن موضوع العائلة وعن تركيبها ووظائفها وتحولها التاريخي حيث أشار في كتابه " **المجتمع**" بأن العائلة البشرية تقسم إلى قسمين أساسيين هما العائلة الممتدة "extended Family والعائلة النووية Nuclear Family والعائلة تتحول تاريخيا من مرحلة العائلة الممتدة الى مرحلة العائلة النووية، وحسب مكايفر توجد العائلة الممتدة في المجتمعات الزراعية الريفية وفي المجتمعات المحلية العشائرية والقبلية، كما أنها تتوفر أيضا في البيئات الاجتماعية العمالية والفلاحية، أما العائلة النووية حسبه دوما توجد في الأقاليم الصناعية والحضارية المتطورة وتتوفر أيضا في الأوساط المهنية والمتوسطة [20].

ويرى العديد من الباحثين طالما أن العوامل التي تم تحديدها كونها سببا لنشأة العائلة ثابتة بشكل نسبي عبر المجتمعات فان العائلة ذاتها يجب أن تكون مظهرا بنائيا في كل المجتمعات.

خامسا: المسوح عبر الثقافة، الأبحاث التاريخية، وظاهرة عالمية العائلة:

لقد أيدت العديد من الدراسات التي أجريت في مجال العائلة في مجتمعات بعينها أطروحة الباحث"Good " القائلة أنه مع التقدم الصناعي تفسح نظم العائلة الممتدة الطريق لكثير من نظم العائلة الزواجية ومن أبرز هذه الدراسات نجد دراسة"Ramu1974,Ray1974,and Conklin1977" وذلك بالنسبة للهند، و1975 Wong بالنسبة لهونج كونج، و1950 Douglass بالنسبة لايطاليا، وغيرها كثير. وكان Zelditch قد قام بمراجعة أعمال كل من "أوجبرن 1955" و"بارسونز 1943" وتوصل إلى أن العائلة الممتدة يمكن لها الاستمرار كشكل مهيمن من أشكال العائلة عندما تكون العائلة الممتدة، فقط هي وحدة العمل الرئيسية، أو وحدة العمالة في المجتمع [21].

وقد أبرزت العديد من الدراسات أن العلاقة بين التعقيد المجتمعي والتعقيد العائلي تأخذ شكل المنحنى الخطي فالمستويات الأعلى للتعقيد العائلي والمقصود هو التكرار الأعلى لنظم العائلة الممتدة توجد في المستويات المتوسطة للتعقيدات المجتمعية حيث توجد الاقتصاديات المستندة إلى الزراعة الكثيفة وتربية الحيوانات، وأي تغيير في التعقيد المجتمعي بدءا من هذه النقطة في أي اتجاه يقابله تناقص من درجة التعقيد العائلي [(22)] .

كانت الباحثة "**Marie Osmond** 1969" قد أعدت دراسة وكانت شكلت تحديا مباشرا للنتيجة التي توصل إليها كل من" نيمكوف، وميدلتون 1960" واستخدمت أوسموند العينة الاثنوغرافية العالمية، وتوصلت إلى نتيجة مؤداها أن نمط العائلة الذي وصفته بأنه" محدد" والذي يتضمن العائلة النووية بوصفها نمطا فرعيا هو أكثر الأنماط شيوعا في المجتمعات التي تقوم على الزراعات الكثيفة منها في المجتمعات القائمة على الصيد والجمع، كما أن نمطا " عاما" للعائلة هو صفة للمجتمعات الأقل تعقيدا [(23)].

ونظرا للدور الذي تؤديه الأسرة أو العائلة والأهمية التي تحتلها في المجتمعات الإنسانية، فقد تميزت بعدة خصائص مشتركة يتفق عليها أغلب الباحثين وعلماء الإنسان والاجتماع فهي كما يرى بعض الباحثين:" اجتماع موحد عن طريق الروابط الدموية، ويعيش أفراده تحت سقف واحد أو في مكان سكني معين في خدمة مشتركة لأفرادها"[(24)].

ويرى العديد من الباحثين أنه سواء تكونت الوحدة الأصلية للعائلة من الوالدين والأطفال أو الأشقاء أو أطفال الأخوات، فان العوامل التي توجت أصل العائلة تتكون من مؤشرات بيولوجية وبيئية تخص الجنس البشري في كل مكان، ويشترك أعضاء كل المجتمعات افتراضيا في خصائص متماثلة بيولوجيا ولو أن المفردات تتباين فإنها تشترك في بعض الاتجاهات العامة المرتبطة بالبيئة الطبيعية. [(25)]

ومن خلال بعض الأبحاث التاريخية فقد تبين ارتباط نظم العائلة الممتدة بالأنظمة الاقتصادية الزراعية، وعلى الرغم من صحة هذا القول غير أنه مفرط في التبسيط ذلك أنه ليس كل التكنولوجيا والظروف الزراعية ترعى العائلات الممتدة، وكان الباحثان" Blumberg and Winch 1979،1977،1972" قد وجدا تناقضا في تعقد العائلة مع ظهور الزراعة الكثيفة والري في مجتمعات الأطلس الاثنوغرافي، وقد أظهر بحث تاريخي أن العائلات الممتدة تحدث بتكرارات كبيرة في الاقتصاديات الزراعية عندما تكون المزارع أو الأرض المملوكة كبيرة بما فيه الكفاية لدعم مثل هذه العائلات والاستفادة منه، وليس في حالة صغر حجمها وقلة إنتاجيتها نسبيا، فتتكون العائلات الممتدة عندما تكون مزارع العائلة مكتفية ذاتيا وتوفر لهم عملا خاصا [(26)].

سادسا:الأصول اللسانية و فكرة عالمية العائلة

لقد ذكر الفيلسوف الصيني كونفوشيوس أن العالم في حرب لأن الدول التي يتألف منها فاسدة الحكم، وذلك أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعي الطبيعي الذي تهيئه الأسرة، وستتم محاولة تتبع الأصول اللسانية لمفردات الأسرة ومرافقها وملاحقها، في عملية أشبه بترسيم لفقه معناها، وعلة تسميتها، ففي محاولة لسانية وفق الفرعين العلميين" الفيلولوجي، philology" " والايتمولوجي Etymology" لقد دشنت الأسرة في الوعي الإنساني من خلال اعطاء أفرادها أسماء مثل: "بنت:دختر" ،" ابن:بسر"،"أخت:خاهر:سيستر" ،" أم:ماذر"،"أب:بادر"،"أخ:براذر" نلاحظ أنه قد حصل انتشار لأسماء الأسرة من الحضارات الشرقية عبر العديد من اللهجات التي اتجهت غربا وكان لها أثر في وجود نظام القرابة [(27)] .

وفيمايلي إبراز للجذراللغوي الاشتقاقي المشترك لبعض مكونات النظام القرابي في اللغات الثلاث العربية ثم الفارسية، ثم الانجليزية [(28)] .

4. أب"فاطر"____بدر_____فاذر.

5. أم"ماه"ـــمادرـــماذر.
6. ابنـــبسرـــصن.
7. بنتـــدوختر ـــدوتر.
8. أخـــبرادر ـــبراذر

فهذه بعض مصطلحات القرابة عبر اللغات العالمية التي تبرز تقاربا مصطلحيا في المبنى واتحادا في المعني وهو الأمر الذي يشكل ويصنع مؤشرا يدعم افتراض عالمية العائلة.

الخـــاتمة:

يمكننا القول إن العائلة من الوحدات الاجتماعية الهامة، كما يمكننا وصفها بالمؤسسة التي تؤدي وظائف عديدة من أبرزها دور التربية ونقل قيم المجتمع بين الأجيال.

لقد لاقت العائلة خطوة تأملية من قبل الفلاسفة في العصور الماضية، واهتماما علميا وامبريقيا واستقصاء حقليا من قبل العديد من العلوم كالأنتربولوجيا وعلم الاجتماع، وعلم النفس والقانون، وكل هذا لما تحتله العائلة من مكانة في إطار العلاقات والتفاعلات، وما تؤديه من وظائف في المجال البيولوجي والاجتماعي.

وحسب ما سبق من آراء وطروحات في مقالنا حول عالمية العائلة فيمكننا تأكيد الرأي القائل وهو ما جاء به جيري لي بأنه مهما تكونت الوحدة الأصلية للعائلة من الوالدين والأطفال أو الأشقاء أو أطفال الأخوات، فان العوامل التي توجت أصل العائلة تتكون من مؤشرات بيولوجية وبيئية تخص الجنس البشري في كل مكان، ويشترك أعضاء كل المجتمعات افتراضيا في خصائص متماثلة بيولوجيا ولو أن المفردات تتباين فإنها تشترك في بعض الاتجاهات العامة المرتبطة بالبيئة الطبيعية.

وما يمكننا إضافته إلى الرأي سالف الذكر هو أن العوامل التي توجت أصل العائلة إضافة إلى أنها بيولوجية وبيئية فان كلا هذين العاملين كان يدوران في إطار الهداية الإلهية للإنسان والجبلة الفطرية التي فطره الله عليها.

❖ هوامش البحث:

(1) ميلفيل هرسكوفيتز: **أسس الأنثربولوجيا الثقافية**، ترجمة رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973.

(2) علي عبد الله الجباوي: **علم خصائص الشعوب**، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، سوريا، 2007، ص177.

(3) Pierre Bonte et Michel Lzard, Dictionnaire de l ethnologie et de l'anthropologie, Quadrige\PUF, 4ème édition,2010.p273.

(4) Ibid.p273.

(5) Ibid .p273

(6) Jacques Lombard, Introduction a l Ethnologie, Armand Colin,1997. –

(7) Pierre Bonte et Michel Lzard, **Dictionnaire de l ethnologie et de l'anthropologie**, Quadrige\PUF, 4e édition,2010.p275.

(8) مصطفى بوتنفوشت، وآخر: العائلة الجزائرية، التطور والخصائص الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص38.

(9) Jacques Miermont. **Dictionnaire de thérapies familiales théories et pratique** ,paris :1987, p498.

(10) محمد الخطيب: الاثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين، دمشق، 2009، ص155.

(11) محمد الخطيب: نفس المرجع ،ص83.

(12) يسري الجوهري، وآخر: الجغرافيا البشرية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1992، ص246.

(13) محمد الخطيب: مرجع سبق ذكره، ص ص، 88،89.

(14) المرجع السابق، ص ص،91-92.

(15) سامية محمد جابر:علم الإنسان، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان،1991، ص15.

(16) جيري لي: البناء الأسري والتفاعل، ترجمة: فهد عبد الرحمن الناصر، الكويت، 2006، ص104.

(17) ايفانز بريتشارد: الأنثربولوجيا الاجتماعية، ترجمة:أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1975، ص96.

(18) إحسان محمد الحسن: علم اجتماع العائلة، دار وائل للنشر، عمان الأردن، 2005، ص61، ص62.

(19) إحسان محمد الحسن: مرجع سبق ذكره، ص ص64،62

(20) إحسان محمد الحسن: مرجع سبق ذكره، ص ص71،70.

(21) جيري لي: البناء الأسري والتفاعل، مرجع سبق ذكره، ص231 .

(22) جيري لي: مرجع سبق ذكره، ص 236.

(23) جيري لي: مرجع سبق ذكره، ص241.

(24) yvonne castellan, la famille, presse universitaires de France, France , 1995; p3.

(25) جيري لي: البناء الأسري والتفاعل، مرجع سبق ذكره، ص110.

(26) جيري لي: مرجع سبق ذكره، مرجع سبق ذكره، ص ص250، 251.

(27) قسم الدراسات والبحوث: بين آدمين، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، مملكة البحرين، دار كيوان، دمشق، 2009، ص ص361، 365.

(28) المرجع السابق، ص365.